اللورد روبرت بادن باول

الكشاف الأعظم العالمي

للأديب خميس زهران

توفى اللورد بادن باول الكشاف الأعظم فى نيرى بكينيا في صباح ٨ يناير وهو فى الثالثة والثمانين من عمره . وكان قد مرض مرضاً خطيراً بنوبات قلبية فى نوفمبر من السنة الماضية ثم تحسنت صحته ولكنها ظلت معتلة ... وقد احتفظ الفقيد بصحته ونشاطه حتى الثمانين ثم أخذت بعد ذلك فى الانحطاط . ومما يذكر عنه أنه اتخذ له داراً فوق منحدرات جبل كينيا حيث عاش مع قرينته حتى توفى

واشتهر الفقيد في حرب البوير فى جنوب أفريقا ودافع عن مافكنج ؛ ولكنه نال شهرته العالمية عند ما أسس حركة الكشافة عام ١٩٠٨ فنجحت نجاحاً عظيماً وأصبح عدد الكشافين والمرشدات فى العالم قبل وفاته نحو خمسة ملايين

بادن باول اسم يعرفه كل من له إلمام بتاريخ الكشافة، ويعجده كل من درس مبادئها واعتنقها فى أى قطر من أقطار المعمورة ، فهو يتزعم تلك الحركة الصفية التى ابتكرها ، وقد وقف نفسه على خدمة الشباب فى العالمين . وهو هو فى نفسه وأخلاقه وعاداته ونزعاته لا يفرق بين جنس وجنس ، ولا يوازى إلا بين النفس والنفس مجردة

ولد الطفل الإنجليزى « روبرت » مؤسس مذهب الكشف من أبوين كريمين هما « بادن باول » والسيدة « هنريتا هراس » ورأى النور فى هذه الحياة لأول عهده بها فى ٢٢ فبراير عام ١٨٥٧ فى شمال هايدبارك بلندن ، وكان أبواه ممن اشتغلوا بالتربية ولم يكن يدور بخلدها أن ذلك الابن السادس سوف يأتى بمذهب فى التربية هو خلاصة آراء علمائها وأظهره عملياً فى ثوب الكشافة ، فحقق بذلك نظريات سقراط وأفلاطون ، ثم أقوال ابن خلدون ولوثر ومن بعدهم روسو وبستالوتزى وسبنسر فقد أجمع كل هؤلاء الفلاسفة الأخلاقيين وغيرهم أن أول الواجبات الإنسانية تأهيل النفوس إلى اكتساب الكمال الممكن بتأسيس الملكات الصالحة وتأصيل الفضيلة الذاتية بإصلاح الأنفس الناطقة حتى تستحق النظر فى حال غيرها أو تمرين سواها ؛ ووافقهم على هذا المبدأ الحقيق حكماء السياسة والشرع عموماً لتسليم البرهان القاضى بعلو الغاية من التربية وإن اختلفوا فى الكيفية على حسب المدارك والاقتضاءات الزمنية

اللورد روبرت بادن باول الكشاف الأعظم العالمى يتلابس الكشافة تتقدمه ابنته « بتى » يتلابس المرشدات (الفتيات الكشافة) وخلفه المستر « ولسن » مدير معهد جلويل عند دخوله المعسكر الدولى الكشافة (جامبورى) الذى أقيم فى هولندا سنة ١٩٣٧

وقد دخل فى العقد التاسع من عمره وقد منحته الطبيعة ما عندها من فتوة وقوة ولم تحرمه لذة الألقاب والغنى فتدرج فيهما إلى أن بلغ ذروة الأولى وأصبح فى درجة لا بأس بها من الثانية وكان لا يزال قدوة الشباب ومرجع المربين : يلبس كالطفل وكالشاب وكالرجل وهو فى الواقع كهل لا بل شيخ . إنما تعاليم الكشف وحياة الكشف جعلت من شيخوخته الشباب الغض والعامل الجد الآخذ من المجتمع بأكبر نصيب . فبادن باول فى حركاته وسكناته كان يعد من الشباب الناهض وإن يكن شيخاً فى مظاهره وفى منظره ، لأنه كان يلبس ما يتذوق الشباب ويتحرك كما يتحرك الشاب ، ويجانس الفتية ويجالسهم دون غضاضة أو تنافر . ولعله فى هذا كان يتحدى الطبيعة ويتحدى الدين إذا استقبلوا الخمسين ترحموا على الدنيا وعلى الحياة ، وعاشوا أمواتاً يبحثون عن القبر ويستضيفون اليأس فى كل أطوارهم

وتاريخ طفولة روبرت مملوء بالحوادث والمفاجآت فقد مات أبوه « بادن باول » الأستاذ بجامعة أكسفورد وهو فى الثالثة من عمره فكفلته أمه السيدة هنريتا ابنة الأميرال « السير سدنى سميث » من أعلام البحرية مدة الحلة الفرنسية مع إخوته الستة وكذا أخته الوحيدة . ولم تلحقه بمدرسة ما بل اكتفت بتعليمه المنزلى . وكانت لدى بادن وإخوته سفينة يمخرون بها عباب اليم

فيجازفون بأنفسهم متغلبين على الأعاصير حتى قويت ملكاته وصار يستعمل الجداف بلباقة وذكاء وتعلم الاعتماد على النفس . وبقي بادن يتلقى بعض العلوم الخفيفة والمعارف السهلة فى منزله إلى أن بلغ الحادية عشرة من عمره فأدخل مدرسة روزهيل الابتدائية فمكث فيها سنتين كان خلالها العلم الفرد فى الألعاب مما جعله محبوباً من أقرانه وأساتذته . ولقد قال عنه الدكتور هايج برونى فى سياق كلام له: « ماشككت قط فى كلمة قالها. ولقد برهن فى جميع أدوار حياته أنه رجل شريف لا يعرف زوراً ولا بهتاناً ولا يخاتل ولا يشك فى كلامه » . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره التحق بمدرسة تشارتر هاوس تلك المدرسة التى تحدث « ثكرى » عنها وأشاد بذكرها فى رواياته القصصية . وكان سيره التعليمى عاديا كشأن الطلبة المتوسطين إلا أنه يبزهم فى اللغتين اللاتينية واليونانية ، وينافسهم فى الأخلاق الفاضلة والصفات النبيلة . أما فى الألعاب بأنواعها فهو ابن بجدتها وفارس حلبتها ؛ شهد بذلك ناظر مدرسته حيث كتب على لوحة الإعلانات قبيل انعقاد مباريات كرة القدم السنوية : « إن الطالب روبرت بادن باول حارس مرمى يقظ هادئ الخلق يعتمد عليه دائماً »

وفى عام ١٨٧٦ ترك الفتى روبرت مدرسة تشارترهاوس ، وكان عمره إذ ذاك تسعة عشر عاماً ، فأخذ يفكر فيما عساه يكون مستقبله ، ولم يكن قد قرر اتجاه حياته بعد . وفى بعض الأحيان تخضع مصاير الناس لمصادمات تافهة لا وزن لها ، وقد يتغير حظ الإنسان ويتبدل مصيره ، لا لشىء إلا أن القدر يريد أن يحقق ما كتب فى صفحته . ومن المحقق أن الامتحان العسكرى الذى صادف انعقاده وقت خروج روبرت من المدرسة كان له من الأثر فى حياته أكثر مما كان يتوقع ، فإن تفوقه ونجاحه بين سبعمائة طالب آخرين دخلوا معه هذا الامتحان بالرغم من عدم ميله إلى الجندية أرغمته على الالتحاق بالفرقة الثالثة عشرة من الهوزار بالهند، وهكذا هيأت له المصادفة الدخول فى جيش بلاده

ولما ذهب إلى الهند ضابطا فى الجيش أعجبته الطبيعة وهام بها ، فأخذ يرى بنفسه فى أحضانها ، ويطبخ طعامه بيده ، ويهيئ فراشه من أغصان الشجر ويهتدى إلى الاتجاهات : بالرياح والنجوم والشمس والقمر ؛ ويعيش مع الحيوانات والطيور ، ويلاحظ نظم حياتها ويدرس أنواعها حتى نمت لديه قوة الملاحظة والاستنباط ، واتسع نطاق ذاكرته ورهفت حواسه ودقت . ولقد قيل إن أول عمل قام به هناك هو أنه جمع عدداً كبيراً من أولاد الأوربيين الصغار ونظمهم واخترق بهم شوارع مدينة لكنو ، لاعبين على بعض الآلات الموسيقية ، وكان يعزف هو على آلة تدعى « أوكارينا »

والمورد بادن باول ذو اطلاع وافر على شئون ممالك كثيرة ، فقد انتقل من الهند إلى بلاد الزولو بجنوبى أفريقيا بعد أن قام بسفرات أخرى طويلة كان له فيها مغامرات جريئة وتجارب قيمة

لا ننظر إلى بادن باول كما ننظر إلى كل شاب ، فهو فى طفولته وفى شبابه ككل منا ، ولكن النظرة التى تهمنا هى من يوم أن هداه الله ، أو قل من يوم أن بعث الكشف من رقدته فى صدر « توماس ستون » ؛ فقد وقع فى سنة ١٩٠٤ أن تنبه الأمريكيون إلى مسألة الكشافة وما يكون لها من وقع حيوى . فذهب المستر توماس ستون الذي كان يتولى إدارة غابات كندا إلى تأليف نفر من أبناء الإنجليز هناك لاستغلال هذه الغابات فجعلهم فرقاً على رأس كل واحدة منها واحد يقوم عليهم يدربهم على النظام والعيش فى العراء ، يأخذهم إلى الغابة ليعلمهم تسلق الأشجار واقتفاء الأثر ، والمراوغة ، والاختفاء عن أعين الرقباء ، والتعرض للشمس . ويعلمهم كذلك السباحة وبعض الحرف النافعة ، ويمنعهم شرب الخمر والتدخين

فلما رأى ذلك السير روبرت بادن باول وكان إذ ذاك فى أمريكا الشمالية أعجبته خطة الرجل وصادفت هوى فى نفسه ، ولكن ما لبث أن أسدل النسيان عليها ستاره

وذلك اليوم هو حين صدرت له الأوامر بالذهاب إلى جنوب أفريقيا لتأدية خدمة عسكرية ، وحين عهد إليه تدريب قوة من الوطنيين لم يكن لهم عهد بالحربية

مائة شاب من سكان جنوب أفريقيا كانوا المزرعة التى غرس فيها « الماجور بادن باول » تعاليمه كتجربة . ومائة لا أكثر استطاعوا أن يؤيدوا صدق مذهب الكشف ، لكن بقيادة هذا الزعيم الكبير ، وهم اليوم يعدون بالملايين فى أنحاء المعمورة ، لا يقف تيارهم جنس أو دين أو مذهب ؛ بل كلهم يعتنقون مذهب الكشف راضين قانعين بفوائده سواء لأجسامهم ولعقولهم ولاستعدادهم للحياة كأفراد عاملين وكأعضاء فى المجتمع نافعين .

واللورد بادن باول فضلاً عن شهرته كـكشاف أعظم كان يعتبر بحق بطل واقعة مفكنج ، فقد أظهر أثناء حصار مدينة مفكنج عام ١٨٩٩ من النبوغ والعبقرية فى الفنون العسكرية ما أطلق ألسنة مواطنيه بالمدح والثناء عليه

وتلك ولا شك كانت حرباً هائلة لم يكن الإنجليز يتوقعون أن يكون للكشافين أثر فيها . فلم يلبث أن دعى الجنرال بادن باول إلى جنوب أفريقيا عند قيام حرب البوير ، فقام بأعمال جليلة رفعت من ذكره فى بلاده

ومما يذكر فى هذا الشأن أن الجنرال الإنجليزى حصر بجيشه فى مفكنج وهى مدينة صغيرة واقعة فى سهول أفريقيا الجنوبية ولم يكن أحد يظن بأنها ستهاجم من العدو كما لا تتوقع أنت مهاجمة العدو لبلدتك أو قريتك إذ أن هذا بعيد الاحتمال

قال بادن باول : « ولما وجدنا أننا سنهاجم فى مفكنج أخبرنا حامیتنا عن النقط التى ينبغى الدفاع عنها . وكان عدد رجالنا قريباً من ٧٠٠ ما بين شرطى ومتطوع ومنظم . ثم سلحنا من الأهلين ٣٠٠ وكان بعضهم من رجال الحدود القدماء الذين هم أهل لهذه المهمة . غير أن كثيراً منهم كانوا تجاراً وكهنة وغير ذلك ولم يشاهدوا سلاحاً من قبل ولم يجربوا تعلم الحركات العسكرية أو الرمى . لذا لم يكن يرجى منهم خير فى البدء . اجتمع لدينا بعدئذ ألف رجل كلفوا بالدفاع عن المكان الذى يضم ٦٠٠ امرأة (بيضاء) وولد ، ٧٠٠٠ من الأهلين وكان محيطه نحو خمسة أميال . أليس من المضحك أن تلقى عدواً يقصد قتلك وأنت لم تتعلم الرمى قط ؟ »

لقد اضطرب الجيش لهذا الحصار الشديد ولم تعد هناك نفس لم يداخلها الخور إلا صاحب ذلك القلب العظيم الذى عرف الحرب من قبل وبلاها فقد كان على بينة من أمره ؛ ومعنى هذا أن لا سبيل أمامه غير الإذعان لمشيئة الظروف فلا بد مما ليس منه بد

اختلى بعد ذلك بزميله اللورد « ادوارد سيسل » لحديث قصير استشاره خلاله فيما يختص بالدفاع وأدلى باقتراحه ذاكراً خطة صديقه « توماس ستون » فوافقه عليها ، وقد سره وأحيا الأمل فى نفسه أنه قد وجد على الأقل رجلاً خبيراً بالعمل الذى ينتويه والذى عهد به إليه وخفف من غم الجنود وشجنهم ، كما أعاد الثقة إلى نفوسهم مشهد هذا القوام العسكرى المهيب وتلك اليد القابضة أبداً على السيف المتدلى بجانبه كأنه قد استحال قطعة متصلة ببدنه ، وهاتان العينان الساكنتان أبداً لا تضطربان ولا تختلجان ، وحديثه كلما تكلم عن المخاطر بلهجة المحتقر لها المستخف بها كل الاستخفاف « أرجو أن تحاولى مكاناً حامى الوطيس متأجج النيران » « نعم قد يحاولون الاقتحام ولكنى أظن أن لا حاجة بى إلى أن انبه جندياً أن عشرين رجلاً من البواسل أولى العزم — وهو ما أعتقده فيكم جميعاً — قادرون بلا شك على الثبات فى الدفاع عن مدينة كهذه إزاء عشرة أمثال أو قل عشرين من أمثال العدد الذى يتقدم به البوريون لاقتحام مفكنج » « وما أنا إلا جندى مثلكم وما سيقع لكم هو واقع لى . فهل رأيتم أثراً للضعف أو التخاذل عندى ، أو لمستم منى ناحية شك فى النصر ؟ » ولما ضربت مدينة مفكنج لأول مرة طير خبر ذلك وعلق عليه قائلاً : « كسر إناء طبيخ ومات كلب » ولقد كتب إلى أحد القواد البوريين : « إنك لم تأخذ المدينة بالقعود عنها والتطلع إليها »

وجعل بادن باول يظهر الاستخفاف من الحصار إلى درجة جعلت رجال الحامية جميعاً مطمئنى الصدور مرتاحى الخواطر ، كما أن ثقته التامة بالنتيجة واستعجاله القتال تركهم فى ذهول من أمره وإعجاب بشجاعته

(البقية فى العدد القادم)

خميس زهران
زعيم جوالة باسكندرية

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :
السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ،
و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فى مجلدين. وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد .